(٧) الأمل والألم

(جوانب من الأمل)

د. صلاح سلطان:

إن كنا نعيش همًا ثقيلًا وألمًا عريضًا لكن في الوقت نفسه نعيش أملًا كبيرًا جدًا، ونرجو أن نعيش معًا هذا الألم والأمل وأن نخط طريقًا من العمل لصناعة العلماء.

كنا نتحدث عن الألم وبدأنا أن نتحدث عن جوانب من الأمل، والناس عادة تجلس مع بعضها في مجالس ما فلا تخرج منها إلا بصورة من الألم الشديد جدًا على وضع الأمة فيزداد شعور الإنسان بانكسار قلبه.

ثم ينقسم الناس إما إلى شخص يصل به الأمر إلى درجة الإحباط واليأس والقنوط {وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ} فنكون قد ساهمنا في صناعة مزيد من الخمول واليأس والإحباط، وإما إلى من يزن الأمور، فلا بد أن نعرف الألم ولا بد في الوقت ذاته أن نستصحب الأمل.

الشواهد التاريخية كثيرة، فنريد جوانب من الأمل في إطار صناعة العلماء وأوضاع من الأمة الإسلامية الموجودة الآن.

د. راغب السرجاني:

الرسول عليه الصلاة والسلام يقول في الحديث: «إذا قال الرَّجلُ: هلك النَّاسُ، فهو أهلكُهم»، أو فهو أهْلَكَهم.

الراوي: أبو هريرة - المحدث: مسلم

المصدر: صحيح مسلم -الصفحة أو الرقم: ٢٦٢٣

خلاصة حكم المحدث: صحيح

وهناك فرق لغوي كبير بين اللغوين والمعنيين صحيحين، أهلَكُهم: أي فهو أشدهم هلاكا واكثرهم هلاكا، لأنه مُحبط لأنه يائِس واليائس ضائع ولا مكان له بين فراد الأمة الإسلامية.

أهلَكُهم: أي فهو الذي تسبب في هلاكهم لأنه بإحباطه هذا أقعد الناس ومنع حركتهم ومنع نشاطهم ومنع حميتهم للدين وللتغيير والإصلاح وما إلى ذلك

فنحن نرى أن الأمل موجود في كل فترات الأمة حتى في أشد لحظات الضعف التي تمر بها الأمة.

وسأستشهد بلقطة سريعة جدًا من التاريخ ثم نعود للواقع الآن، وهي من تاريخ أشرف الرسل وأعظم الانبياء وخاتم المرسلين، لما جاءه خباب بن الأرت وقد كويَ بالنار، وتعرض لألم شديد وضنك.

ماذا قال للرسول وماذا كان رد فعله؟

الرجل يقول للرسول أمر بسيط جدا، يقول: «إلا تَسْتَنْصِرُ لَنَا؟ إلا تَدْعُو اللَّهَ لَنَا؟...»

فإذا برسول الله يغضب، وكان متكئا فجلس واحمر وجهه ثم قال: «.. كَانَ الرَّجُلُ فِيمَنْ قَبْلَكُمْ يُحْفَرُ لَهُ فِي الأَرْضِ فَيُجْعَلُ فِيهِ، فَيُجَاءُ بِالْمِنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ فَيُشَقُّ بِاثْنَتَيْنِ وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَيُمْشَطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ مَا دُونَ لَحْمِهِ مِنْ عَظْمٍ أَوْ عَصَبٍ وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ....»

الراوي: خباب بن الأرت - المحدث: البخاري

المصدر: صحيح البخاري - الصفحة أو الرقم: ٣٦١٢

خلاصة حكم المحدث: صحيح

فنلاحظ أن الرسول ينبه خباب إلى التاريخ الذي سبق، لأن العملية كلها نسبية وبالقياس، إذا كان أنا وضعي الآن سيء فننظر إلى ما سبقنا، فإذا كان أسوأ فإذا وضعي الآن جيد بالنسبة له، فقارن الرسول صل الله عليه وسلم وضع خباب بوضع التاريخ الذي قبله.

وغضب الرسول صل الله عليه وسلم، وذلك لأنه فقط اشتم رائحة يأس في كلام خباب وغير مسموح للمسلم أن ييأس ولهذا اخبره بأمرين، الأول ذكَّره بالتاريخ لأنه جزء رئيسي لبناء الفرد المسلم والمجتمع، ثلث القرآن تاريخ.

الأمر الثاني: ثم يخبره بالمستقبل والوعد الذي يعده به: «... وَاللَّهِ لَيُتِمَّنَّ هَذَا الأَمْرَ، حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إلى حَضْرَمَوْتَ لا يَخَافُ إلا اللَّهَ أَوْ الذِّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ، وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ».

فبعد كل هذا الألم والتعب يكون خباب مستعجل، فماذا نقول عن أنفسنا نحن ونحن لم نرى ما رآه خباب الذي رآه الرسول انه قليلا بالقياس على ما حدث فيما سبق.

د. صلاح:

دعنا نأخذ لقطة أخرى في هذه المسألة، بعد أن أذكيت فينا روح العودة إلى هذه الأصول الكبيرة.

نتعجب لحديث عدي بن حاتم، عندما اتى رجالا للنبي صل الله عليه وسلم يشكون فإذا بالنبي صل الله عليه وسلم يقول: «... وَلَئِنْ طَالَتْ بِكَ حَيَاةٌ لَتُفْتَحَنَّ كُنُوزُ كِسْرَى، قُلْتُ: كِسْرَى بْنِ هُرْمُزَ، قَالَ: كِسْرَى بْنِ هُرْمُزَ وَلَئِنْ طَالَتْ بِكَ حَيَاةٌ لَتَرَيَنَّ الرَّجُلَ يُخْرِجُ مِلْءَ كَفِّهِ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ فِضَّةٍ يَطْلُبُ مَنْ يَقْبَلُهُ مِنْهُ، فَلَا يَجِدُ أَحَدًا يَقْبَلُهُ مِنْهُ..»

الراوي: عدي بن حاتم الطائي -المحدث: البخاري

المصدر: صحيح البخاري -الصفحة أو الرقم: ٣٥٩٥

خلاصة حكم المحدث: صحيح

هذه كانت بشرى اقتصادية كبيرة جدا، نظرا لأنهم وقتها كانوا يعيشون ظروف قاسية جدا، حتى أن السيدة خديجة احد اسباب وفاتها انها تعرضت لحياة صعبة جدًا في شعب ابن طالب في الحصار الاقتصادي، أدي إلى الناس قتلت وناس ماتت موتا بطيئا

فنجد أن الرسول في هذا الحديث بَشرهم بالسلطة ثم الانتعاش الاقتصادي ثم الأمن فهذه فقال: «وَلَيَلْقَيَنَّ اللَّهَ أَحَدُكُمْ يَوْمَ يَلْقَاهُ وَلَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تَرْجُمَانٌ يُتَرْجِمُ لَهُ، فَلَيَقُولَنَّ لَهُ أَلَمْ أَبْعَثْ إِلَيْكَ رَسُولًا فَيُبَلِّغَكَ، فَيَقُولُ: بَلَى، فَيَقُولُ: أَلَمْ أُعْطِكَ مَالًا وَأُفْضِلْ عَلَيْكَ، فَيَقُولُ: بَلَى فَيَنْظُرُ عَنْ يَمِينِهِ فَلَا يَرَى إلا جَهَنَّمَ وَيَنْظُرُ عَنْ يَسَارِهِ فَلَا يَرَى إلا جَهَنَّمَ، قَالَ: عَدِيٌّ سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَقُولُ: اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقَّةِ تَمْرَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ شِقَّةَ تَمْرَةٍ فَبِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ، قَالَ: عَدِيٌّ فَرَأَيْتُ الظَّعِينَةَ تَرْتَحِلُ مِنْ الْحِيرَةِ حَتَّى تَطُوفَ بِالْكَعْبَةِ لَا تَخَافُ إلا اللَّهَ وَكُنْتُ فِيمَنِ افْتَتَحَ كُنُوزَ كِسْرَى بْنِ هُرْمُزَ وَلَئِنْ طَالَتْ بِكُمْ حَيَاةٌ لَتَرَوُنَّ مَا، قَالَ: النَّبِيُّ أَبُو الْقَاسِمِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُخْرِجُ مِلْءَ كَفِّهِ».

افريقيا التي تشكو الآن من التصحر والتي بها على الأقل ٣٥٠ مليون يعيشون تحت حزام الفقر الشديد، افريقيا تحت الحكم الإسلامي كانت ترسل زكاتها إلى دار الخلافة الإسلامية.

وهذه البشارات النبوية لا بد أن تستقر في الأعماق، ونحن عندما نصنع علماء ربانيين نقول أن العالِم دائما عنده الأمل ويبث هذا الأمل لمن حوله.

د راغب:

المشكلة أن احيانا هذا العالِم يكون هو المُحبَط ويوسع الفجوة التي بيننا وبين غيرنا، ويبث جلد الذات في نفوس الناس.

واذا نظرنا إلى التاريخ الحديث، منذ حوالي ٤٠ سنة، في واقع امتنا وفي واقع حال المسلمين في العالم اجمع سنجد فرقا كبيرا بين هذا الحال والحال الآن.

لننظر فقط إلى حالنا منذ ٧ سنوات مثلا ما عدد القنوات الفضائية التي كانت تتكلم عن الإسلام؟!

وقتها كان نادرا ما تجد برنامج اسلامي مدته ١٠ دقائق ويتكلم بصورة جيدة عن الدين،

نعلم أنه لم يختفي الشر من الدنيا، لكن وجود الخير بهذا الكم من الفضائيات الإسلامية وتنافسها على إخراج الخير للناس فهذا ملمح لا بد أن نقف امامه وقفة أمل ونرفع الرأس ونسعد ونطمئن لدين رب العالمين سبحانه وتعالى، الذي نشره هذا النشر في ايام معدودات، فنحن نتكلم عن ٦ سنوات تقريبا وهذه في اعمار الأمم لا شيء،

فوجود هذا الكم الهائل من العلماء على القنوات والذين يوافقون كل رغبات المستمعين والمستمعات، فهذا التنوع يجعل كل المسلمين يشاهدون البرامج الإسلامية وينتقلون من قناة إلى قناة ولم يعد التلفاز هو جهاز الشر كما كان، وهذا فقط ملمح بسيط.

وعندما ننظر الآن إلى مواقع الإنترنت كوسيلة من وسائل دخول الإسلام إلى العالم أجمع، فمنذ ١٠ سنوات لم يكن هناك ثلاثة مواقع في العالم كله يتحدثون عن الإسلام، اما الان فمواقع الإسلام لا حصر لها ولا تستطيع أن تُحصي عددها هذه ابدا ويدخلها عدد كبير جدًا من الناس.

فمثلا موقعي قصة الإسلام يدخل إليه ٢٢ ألف إنسان يوميا، وعندما رأينا الدول التي تدخل إلى الموقع يوميا وجدنا أن من العالم كله هناك ٥ دول فقط لا تدخل إلى الموقع فقط، فهذا شيء مبهر جدا.

ودخول المواقع الإسلامية الآن إلى كل بيت يذكرني بحديث الرسول: «ليبلغنَّ هذا الأمرُ ما بلغَ اللَّيلُ والنَّهارُ، ولا يتركُ اللهُ بيتَ مدَرٍ ولا وبَرٍ إلا أدخلَهُ اللهُ هذا الدِّينَ، بعِزِّ عزيزٍ، أو بذلِّ ذليلٍ، عزًّا يعزُّ اللهُ به الإسلامَ، وذلًّا يذِلُّ اللهُ به الكفرَ».

الراوي: تميم الداري -المحدث: الألباني

المصدر: تحذير الساجد -الصفحة أو الرقم: ١٥٨

خلاصة حكم المحدث: على شرط مسلم وله شاهد على شرط مسلم أيضا

فالآن يدخل الإسلام إلى كل بيت رغم انوف العالم اجمع، وبرغم كل الحصار والإحاطة والإرهاب السياسي والعسكري، ثم يتسلل الإسلام إلى كل بيت الآن، فكل البيوت الآن بها جهاز كمبيوتر فيستطيع الجميع أن يقرأ عن الإسلام والقرآن والحديث وغيره.

فنحن في واقع الشواهد به كثيرة جدًا ولعل حضرتك لديك اضافات تقول اننا فعلا بفضل الله إلى صعود، واقتراب من الصدارة.

د. صلاح:

وبالنسبة للبرامج، لم أكن أتصور أن هناك إحدى الأخوات تقول (أنا زوجي خلال ٢٠ سنة وهو سكير وعربيد وانا صابرة محتسبة أحاول بكل ما استطيع الحفاظ على البيت وأولادنا وبناتنا، لكنه استمع إلى إحدى برامجكم فبكى وتاب وأناب إلى الله سبحانه وتعالى وصار من البعاد والزاج الطاهرين المتميزين).

والرسائل التي تأتينا من هذه البرامج تعجلنا نستفيض في البكاء لله عز وجل، ونقول يا رب أنت من كرمك ومنك سخرتنا لحمل رسالتك وأداء أمانتك وتحمل رسالتنا إلى الناس في أقاصي الأرض.

فهذا الخير أثر في المسلمين اولا ثم غير المسلمين ثانيا.

كنت أكلم أحد الإخوة في أحد المساجد وأقول لهم لو أن احدكم في عمله طُلِبَ منه أن يزيد ساعة إلى مدة عمله وسيأخذ في مقابلها ١٠٠ دولار، فهل أحد سيرفض؟ فقالو لي مستحيل، فقلت لهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «فواللهِ لَأَنْ يَهْدِيَ اللهُ بكَ رجلًا واحدًا، خيرٌ لَكَ مِنْ أن يَكُونَ لَكَ حمرُ النَّعَمِ».

الراوي: سهل بن سعد الساعدي -المحدث: البخاري

المصدر: صحيح البخاري -الصفحة أو الرقم: ٣٧٠١

خلاصة حكم المحدث: صحيح

فما رأيكم عندما يعود الفرد منكم من عمله يجلس أمام الإنترنت، واعمل شات جاد جدًا ولكن قبلها أدعي الله وقل: (اللهم أسالك من فضلك العظيم وجاهك القدير أن تلهمني ما يفتح قلوب الناس لدينك) وقل اللهم الهمني الحكمة وفصل الخطاب، وتبدأ تتكلم وتكون جاد في كلامك.

وبعدها جاءني أحد الإخوة يقول: (أنا طبيب وأخذت الموضوع بمنتهى الجدية وكنت كل يوم لمدة ساعة اتكلم عن الدين، فإذ بيوم كلمتني أخت أجنبية وتسألني عن الإسلام وتقول أنها تحب أن تعرف عن الثقافات والديانات وطلبت أن أعلمها وكان لها شرط إلا أطلب منها أن تتحول عن دينها فالأمر بالنسبة لها مجرد ثقافة وفضول، فبدأنا نتكلم وكنت أرسل لها عن الدين كل يوم مع دعائي المستمر لها بالإسلام، فإذ بها في رابع يوم تسألني عن أقرب مركز إسلامي لتعلن إسلامها)

أصبحت الفضائيات والإنترنت عامل جديد وقوي جدًا والآن تستطيع وانت تجلس في بيتك أن تخاطب الناس في بلاد شتى.

د. راغب:

أتخيل أنه لو أحد السلف موجود الآن ويرى هذه الثورة ماذا سيفعل للدين في هذا الوقت، أذكر مجالس ابن الجوزي، واحمد بن حنبل، وابن تيمية، فهذه المجالس كان الحضور فيها يصل في بعض الأحيان إلى ١٠٠ ألف شخص وكنت أتساءل كيف لهم أن يتحدثون إلى الجميع وكيف لهذا الجمع من الناس أن يسمعهم، فكان عندما يتكلم إليهم وعندما ينتهي من جملة واحدة كان عليه أن ينتظر وقتًا لأن الناس كانوا يوصلوا الكلام إلى بعضهم البعض إلى أن تصل الجملة إلى الـ ١٠٠ ألف شخص.

أما في وقتنا هذا فيمكن أن يصل الكلام إلى الملايين وانت تجلس في بيتك، فهذا شيء مذهل وهذا تقدم نسعد أن ربنا سبحانه وتعالى مَنَّ علينا به في هذه الآونة.

ولعل لديك الكثير من شواهد الأمل فتقول لنا تطور الإسلام والجاليات المسلمة وحالة المسلمين في بلاد الغرب، وهذه الشواهد تدل على تغيير حالنا للأفضل.

د. صلاح:

أذكر دارسة علمية على سبيل المثال قامت بها جامعة هارد فورد بالتعاون مع عدد من المؤسسات الإسلامية في أمريكا ،هذه الجامعة لها دراسة سنة ٢٠٠١ ودراسة آخري سنة ٢٠٠٦، فقالت أن المساجد تزيد من حيث المباني وإنشاء مراكز إسلامية بنسبة ٣٠٠ %.

وما أراه أنا شخصيا أنني عندما سافر إلى أمريكا أجد أن كل أسبوع ينشأ مركز إسلامي جديد وضخم.

والأجمل من هذا، الأنشطة التي تحدث داخل المسجد

قالوا انه كان عدد عمار المساجد ٥٠٠ ألف في سنة ١٩٩٦، الآن أصبحت ٢ مليون، فزاد العدد أربعة أضعاف ما كان عليه سابقا.

وأيضا المساجد أصبح بها انشطة متنوعة تذكر بالمراكز الإسلامية الأولى أيام الرسول صل الله عليه وسلم، على حين وزارات الأوقاف في كير من الدول تحيط المساجد بسياج الملاحقة والمتابعة حتى أصبح الأصل فيها الحظر لا فعل الخير.

اما في بلاد الخارج، المساجد تعمل ليل نهار، فأصبحت دعوة غير المسلمين في أكتر من ٧٧% من هذه المراكز وعدد كبير جدًا يدخلون في الإسلام، حتى أن الحكومة الأمريكية أعلنت على صفحاتها على الإنترنت أن الإسلام أكثر الديانات نموًا في الولايات المتحدة.

خلاصة ما أريد قوله، أن صناعة العلماء الربانين تكون بالأمل وأن يصبح كل أب وأم بداخلهم هذا الأمل، وبالفعل كل البلاد التي أزورها ما أذهب إلى زيارة ثم أعود إليها إلا أن أجد المنحى صاعدا للإسلام برغم كل المعوقات والظروف وكل التشويه الهائل جدا، لكن هذا دين الله تعالى.